ك بلا حواجز [10/6]

المسائل العملية ولا يتقنها، وأنت تعرف الفلسفة ولديك قدرة عملية كبيرة، وعادة ما يكون المفكر السياسي غير محترف السياسة وممارساتها، لكنك مفكر سياسي في ذات الوقت.

فلماذا لا تقود أهل مصر في طريق الخلاص؟

أجاب هيكل عن فيض تساؤلاته: لقد جئت إليك حتى أسمع منك، ما تفسيرك لتدهور موقف مصر السياسي؟ ولماذا رحب البعض بهذه الاتفاقية؟

قال حمدان في كلمة كالرصاص: إنه الطغيان].

قرب نهاية ذلك اللقاء الأول اتفقا على طريقة للاتصال المباشر لتحديد موعد لحوار آخر، أن تكون هناك رنة هاتف واحدة تتبعها رنتان بينهما فاصل.

وفي اللقاء الثاني بمكتب هيكل تبادلا الأدوار، حمدان يسأل وهو يجيب.

كانت لدى المفكر الجغرافي أسئلته عن رؤية عبدالناصر للصراع في المنطقة، وأخذ أستاذ الصحافة يشرحها باستفاضة.

وهو يدخل إلى مكتب هيكل حمل الدكتور جمال حمدان معه نسخة من أثره الجليل «شخصية مصر» عليه إهداء يصفه بـ«أهم كاتب سياسي في العالم وأعظم مفكر سياسي أنجبته مصر».

«قلت له: يا جمال هذه مبالغة».

(2)

على حائط في ممر داخل مكتبه عشرات الصور.

لكل صورة قصة وتاريخ.

فكر لبعض الوقت أن يستلهم الصور وخلفياتها التاريخية والإنسانية واختار عنواناً مؤقتاً: «صور على جدار».

غير أنه لم يتسن لهذا المشروع أن يكتب، فقد استأذن في الانصراف عندما وصل إلى الثمانين من عمره.

الفكرة العامة لـ«صور على جدار» أقرب إلى ما كتبه في «زيارة جديدة للتاريخ» حيث تطرق بتوسع لشخصيات نافذة في عصرها مثل الملك الإسباني السابق خوان كارلوس، والزعيم السوفياتي يوري أندروبوف، والفيلد مارشال مونتغمري، وألبرت أينشتين، وجواهر لال نهرو، ومحمد رضا بهلوي الذي أطيح به من فوق عرش الطاووس.

لم تتح له ظروفه أن يكتب عن شخصيات كثيرة أخرى، صورها على جدار مثل بطل حرب فلسطين الشهيد أحمد عبدالعزيز ـ الذي تعرف إليه في ميادين القتال، ونائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الأسبق محمود فوزي ـ وكان يراه الأفضل في تاريخ الدبلوماسية المصرية، والرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران ـ الذي ارتبط معه بصداقة قبل صعوده إلى الإليزيه، والزعيم اليوغسلافي جوزيب بروز تيتو ـ وقد حاوره كثيراً، والثائر اللاتيني أرنستو تشي غيفارا ـ الذي حاوره مطولاً في القاهرة، والزعيم السوفياتي نيكيتا خرتشوف ـ وقصتهما معاً مثيرة وقد أورد بعضها في متن بعض كتبه، ورئيس الوزراء الصيني التاريخي شواين لاي ـ وهو الشخصية الدولية الوحيدة التي أعلن كتابة أنه منحاز إليه ومعجب به، وزعيمة المليار هندي أنديرا غاندي ـ وكانت صلته بعائلة نهرو طويلة وممتدة، والمستشار الألماني إبان الحرب الباردة فيلي برانت ـ أحد أهم الذين تولوا هذا المنصب في التاريخ الألماني المعاصر، ورئيس الوزراء الباكستاني «ذو الفقار علي بوتو»، أبرز من تولى هذا المنصب في بلاده وجرى إعدامه بعد انقلاب عسكري، وأول رئيس للجزائر المستقلة أحمد بن بيللا ـ والرجلان ينتميان لفكرة واحدة جسدها «جمال عبدالناصر»، وأول رئيس لتونس بعد الاستقلال الحبيب بورقيبة ـ والصورة تكشف شيئاً من المودة تحاول أن تردم الجفوة بين نظامين عربيين، والأديبين الكبيرين توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وأم كلثوم وعبدالحليم حافظ وآخرين من عوالم مختلفة.

عندما خطرت له فكرة كتابة «بورتريهات إنسانية وتاريخية مماثلة لـ«زيارة جديدة للتاريخ» استدعته العواصف السياسية إلى الحاضر وقلقه.

(3)

خلف كل صورة قصة، وفي بعض القصص مناطق مجهولة لم يتطرق إليها.

قصته مع توفيق الحكيم مثيرة بذاتها، وأحياناً بدورسها.

في منتصف ستينيات القرن الماضي سأله الحكيم أن يبدي رأيه في مقال انتهى من كتابته للتو، ومقالاته تمزج ما بين الأدب ونقده والحياة وتأملاتها.

فاجأه السؤال لكنه أجاب على الفور: «يا أستاذ توفيق أنا أقرأ ما تكتب كأي قارئ آخر، أرسله إلى المطبعة أيا ما كتبت ولا تراجع أحداً».. وفي يقينه قاعدة استقرت: «عندما يكون لصاحب الرأي تجربة عريضة واسمه يزكيه فهو وحده من يتحمل مسؤوليته أمام الرأي العام ولا شأن لأي رئيس تحرير بما يكتب».

ألح عليه رائد المسرح العربي، وصاحب رواية «عودة الروح»، التي ألهمت جمال عبدالناصر وجيله في مطالع الشباب، أن يقرأ ما كتب وأن يسمع ملاحظاته عليه.

لم يكد يطالع النص ويشرع في القول: «هناك بعض ملاحظات» حتى استوقفه «الحكيم» طالباً إعادة المقال إليه ومزقه بلا تردد ملقياً أوراقه في سلة مهملات.

لم يكن الحكيم مستريحاً لما كتب واستبد به قلقه.. أراد أن يتأكد بنظرة أخرى يطمئن إليها أن أسبابه في محلها.

القلق من طبائع الإبداع، فما هو رتيب ومألوف ومتوقع لا يلهم إبداعاً يبقى، أو يفضي إلى رؤية تختلف.

في القلق سعي إلى شيء من الكمال لا يُدرك لكنه يُطلب.

كان هو نفسه ذات الرجل..

«تقول لي إن تاريخي يشفع أمام مشاهدي لكن التاريخ وحده لا يقنع أحداً بأنه يسمع ما يستحق الاستماع إليه، وإن لم يكن الكلام مقنعاً فسوف يكون من العبث أن تذكر الناس بالتاريخ».

«في كل مرة تكتب على ورق، أو تطل على شاشة، لا بد أن يكون لديك شيء جديد تقوله لا يكرر ما اجتهد فيه غيرك».

في مسرحية الحكيم «بنك القلق» شيء من شخصية ونوازع المثقفين والفنانين الكبار.

تلك النوازع تملكت سيدة الغناء العربي أم كلثوم، وجلال صوتها يهز الوجدان العربي من محيطه إلى خليجه، حتى تكاد أن تهوى من فرط قلقها قبل أن تقف على خشبة المسرح، كأنها تدخل اختباراً جديداً قد تخفق فيه، أو كأنها تعلمت للتو أبجديات الغناء، لكنها ما أن تبدأ في الشدو فهي ملكة على عرشها.

باستثناء إشارات عابرة لأم كلثوم فإنه لم يكتب، أو يرو عنها بقدر ما اقترب منها.

إذا جاز لي أن أحدد فناناً باسمه هو الأقرب إليه فإنها «أم كلثوم»، ولا أحد آخر قبلها.

كان رأيه أن فيها «شهامة أهل الريف»، بينما لم يحظ الموسيقار محمد عبدالوهاب بنفس المكانة ففيه «براجماتية الحارة الشعبية».

عندما كانت تزور سيدة الغناء العربي السيدة تحية عبدالناصر ويتصادف أن يراها الرئيس، كان يدعوها للغناء بمقاطع يحفظها، ويدندن خلفها، وكان من عادته أن يغني لعبدالوهاب كلما سنحت فرصة للاختلاء بنفسه.

قلت: «لكنك لم تشر أبداً إلى وصلات الغناء المشتركة بين عبدالناصر وأم كلثوم، رغم أنها بدلالاتها الإنسانية أكثر أهمية من بعض القصص السياسية؟».

قال: «لا تقل لي ذلك، فأنا متأكد بالخبرة والتجربة من أهمية تلك القصص في كشف ما غمض من جوانب خفية لرجال التاريخ».

«دعها لي فسوف أكشف عنها في الحوارات التلفزيونية المقبلة».

غير أن الشواغل السياسية الضاغطة أخذته بعيداً عن تلك الإشارة الإنسانية الموحية.

كان حديثه عن أم كلثوم دافئاً، فيما لم يكن متحمساً لعبدالوهاب، يعرف قدره الفني لكن طباعه الشخصية لا توافقه.

عندما شاع في منتصف السبعينيات أن قراراً جمهورياً يوشك أن يسند منصب نائب رئيس الوزراء لهيكل، اتصل به عبدالوهاب قائلاً: «نهنئ أنفسنا يا أستاذنا».

رد هيكل: «لكني اعتذرت».

.. ولم يتصل مرة أخرى.

سألته: «لماذا غاب عن الدور السادس في الأهرام عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين؟».

«إن الجو في مكتبة الدكتور طه حسين غريب مثير.. إن المكتبة أشبه ما تكون بصومعة.. صومعة عقل».

«غرفة لا تبين جدرانها لأن رفوف الكتب ارتفعت إلى السقف، غرفة فيها آثار أشبه ما تكون باللمسات السحرية. تمثال هنا للدكتور طه حسين.. وتمثال على الناحية الأخرى لملاك نشر أجنحته ولكنه بلا رأس.. رأسه مكسور!».

«في وسط ذلك كله.. جلس على مقعد كبير الرجل الذي مزق حجب الظلام الكثيفة المحيطة به لكي يستقبل النور الخالد.. ويعكسه إلى الملايين بعد أن يضفي عليه شيئاً آخر.. شيئاً من ذات نفسه!».

هكذا كتب عنه في أول يومياته عام 1955 بصحيفة «أخبار اليوم».

بعد سنوات سأله أن يأخذ موقعه على رأس كبار المفكرين والمثقفين والأدباء في «الأهرام».

قال الدكتور «طه»: «لماذا.. وأنت عندك الأخ توفيق؟»

عندما وصلت إلى مسامع توفيق الحكيم قصة ذلك اللقاء سأل هيكل: «لماذا لم تبلغني؟».

. «بأية صفة؟!».

أجابه «الحكيم»: «بصفتي رئيس الدور السادس».

كان عميد الأدب العربي يدرك حساسيات كبار المثقفين فهو كبير وهم كبار، فنأى بنفسه عن أية منازعات من هذا النوع.

بالنسبة لهيكل طه حسين أستاذ ملهم، والحكيم صديق مقرب.

وقد كان طه حسين أول من استخدم كلمة «ثورة» لوصف ما حدث في 23 يوليو.

وتوفيق الحكيم أول من هاجمها في «عودة الوعي» بعد رحيل عبدالناصر.

غير أن قيمة الأدباء لا تحددها مواقفهم السياسية المتغيرة وإن كانت تضفي، أو تسحب، من أوزانهم العامة.

ديغول: انظر يا مسيو هيكل، هذه مساحة العالم العربي وهذه مساحة إسرائيل، الهزيمة التي لحقت بكم مؤقتة بطبيعة الجغرافيا والحقائق السكانية فوقها... ومن ينظر عندكم إلى الخريطة لا بد أن يستشعر ثقة

عندما كانت تزور سيدة الغناء العربي، السيدة تحية عبد الناصر، ويتصادف أن يراها الرئيس، كان يدعوها للغناء، ويدندن خلفها، وكان من عادته أن يغني لعبد الوهاب كلما سنحت فرصة للاختلاء بنفسه